

حاجي خليفة

أستاذ فن الكتب الاسلامي

في ربيع الثاني من سنة ١٠٣٨ . وقدمات أبوه في الموصل سنة ١٠٣٥ هـ أثناء العودة من حصار بغداد . وكان مصطفى إذ ذاك كاتباً في قلم تفتيش السورى .

مر مصطفى ذات يوم ، أثناء فترة من فترات إقامته بالقسطنطينية ، بمسجد السلطان محمد ، وكان الشيخ محمد بن مصطفى الشهير بقاضى زاده يلقى درسا في الوعظ ، فجلس يستمع إلى الدرس . وكان قاضى زاده طلق اللسان فصيح البيان ، وأكثر حديثه في الحث على تحصيل العلم واجتناب الجهل ؛ فأعجب مصطفى بذلك وعزم على تحصيل العلم ؛ وأول ما فعل أن استعاد ما قد تعلمه من العلوم الآلية ، حتى حصل على ملكة الاعراب وتركيب الجمل . وظل يتردد على حلقة دروس الشيخ إلى أن سافر في الجيش الذي أرسل تحت قيادة الصدر الأعظم خسرو باشا لمحاربة الفرس ، فحضر حملة همدان في عام ١٠٣٩ وحصار بغداد في عام ١٠٤٠ هـ .

وفي عام ١٠٤١ هـ عاد إلى القسطنطينية ، وعاود الاستماع إلى شيخه قاضى زاده وكان يدرس التفسير وإحياء علوم الدين للغزالي وشرح المواقف ، دون أن يتعرض لما في تلك الكتب من المواضع المنطقية والفلسفية التي يجملها الشيخ ويحرم تعليمها .

وفي عام ١٠٤٣ هـ سافر في الجيش الذي ارتحل إلى مكنات حلب ليشتوبها ، فأنهز فرصة الهدوء هذه وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وبعد أن أتم الحج وزار الروضة الشريفة ، لحق بفرقة في مدينة ديار بكر ، وقضى

لا شك في أن الحاج خليفة أوسع علماء الاسلام معرفة بالكتب الاسلامية ، لقد حاز بحق الأستاذية في هذا القرن على علماء الغرب وعلماء الشرق بكتابه الجليل « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » . وأريد أن أذكر هنا نبذة من ترجمته ، مستنبطاً معظمها مما كتبه بنفسه في نهاية آخر تأليفه ، ليطلع القراء على طريقته في التعلم والتأليف .

اسمه مصطفى بن عبد الله ، واشتهر بحاجي خليفة ، ولقب بكاتب جلبي ، وذاع صيته عند الترك بهذا اللقب ، وعرف عند علماء الغرب بحاجي خليفة ، (ولد بالقسطنطينية في ذى القعدة من عام ١٠١٧ . وكان أبوه من رجال الجيش ، فقيد اسم مصطفى في سجل الجيش في فرقة السلاحدار التي كان أبوه يخدم فيها . وقد أولع بالقراءة والكتابة - كما يحدث عن نفسه - فالتحق في عام ١٠٣٢ هـ تلميذاً بقلم حسابات الأناضول ، ومنذ هذه السنة أخذ يتجول مقاتلاً في حدود الأناضول الشرقية ، ولم يستقر له المقام إلا بعد عشرة أعوام .

ففي عام ١٠٣٣ سافر لمحاربة محمد آباظه باشا الذي ثار على الدولة العثمانية مدعياً بأنه يطالب بدم السلطان عثمان الثاني الذي قتل سنة ١٠٣١ هـ بيد الانكشارية ، واشترك في موقعة القيصرية ، ثم اشترك في حرب الفرس ومحاصرة بغداد التي بدأت في صفر وانتهت في شوال من عام ١٠٣٥ . وسافر مرة ثانية لمحاربة محمد آباظه باشا فحضر حصار أرضروم في عام ١٠٣٧ و١٠٣٨ هـ وعاد إلى القسطنطينية

الواعظ أحد تلاميذ الشيخ ابراهيم اللقاني المصري ؛ وأوصل بذلك سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ودرس الفقه وأصول الفقه في عام ١٠٥٤ هـ . وهكذا استطاع بفضل اشتغاله ليلاً ونهاراً أن يتقن معظم العلوم الإسلامية المعروفة ، وأن يقرأ ما لا يحصره عددٌ من الكتب في نحو عشر سنين . وكان منهجه في التعلم والتعليم « دخول كل كثرة من جانب وحدتها وضبط الأصول بالإحاطة بالكليات بدون تضييع الوقت في الجزئيات » .

وفي عام ١٠٥٥ هـ استقال من وظيفته ففرغ للاشتغال بالعلم ، ف قضى نحو ثلاث سنوات يدرس علوم العروض والقوافي ، واستخراج دستور التقويم من زيج ألخ بك . ويظهر أن هذه الفوائد الفرطة أثرت في صحته ومزاجه ، فشرع يتعلم الطب الروحاني « لاصلاح مزاجه » ، فيتعلم علم الحروف والأسماء والخواص فيصلح مزاجه .

وفي عام ١٠٥٨ هـ ألف كتابه المسمى « تقويم التواريخ » قدمه شيخ الاسلام الذي كان يعطف عليه إلى الصدر الأعظم قوجه محمد باشا مطرباً الحاج مصطفى قائلاً : « إنه يستحق كثيراً ، غير أنه وضع المهمة في الأمور الدنيوية لا يريد جاهاً ولا منصباً ، فالرجاء الأهتمام بمصلحته بلا تردد » فنجح براءة برتبة « الخليفة الثانية » . ومن هنا نشأت شهرة « حاجي خليفة » . وقضى بقية حياته مكتفياً قائماً بما يريح من هذه الوظيفة التي لم تكن تشغله أكثر من يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع ، شاكرآ الله تعالى على هذه النعمة التي أتاحت له فرصة الاستزادة من العلم ، وداعياً أن يديمها عليه مادام حياً ، ويظهر أن الله قبل دعوته الخالصة هذه ، فظل يمارسها إلى أن توفي في ١٧ من ذي الحجة عام ١٠٦٧ ، ودفن في فناء مدرسة لا تزال تحمل اسمه بحي « وفا » باستانبول .

شتاء تلك السنة فيها ، وقد اغتتم هذه الفرصة فأمضى معظم أوقاته مباحثاً علماء ديار بكر في شتى المسائل العلمية . وفي عام ١٠٤٤ هـ كان في الجيش الذي حارب الفرس تحت قيادة السلطان مراد خان الرابع ، واستولى على مدينة إربوان في ٢٠ صفر من سنة ١٠٤٥ ، وفي رجب من هذه السنة عاد إلى القسطنطينية عازماً على ترك « الجهاد الأصغر للجهاد الأكبر » ، وتخصيص بقية عمره له . وكان أثناء إقامته يجلب قد شرع في قيد أسماء الكتب التي رآها في المكتبات وحوانيت الوراقين ؛ ولما عاد إلى القسطنطينية استولى على ميراث صغير اشترى به كتباً ، وقضى عام ١٠٤٦ هـ في مطالعتها ، ولا سيما كتب التواريخ والطبقات والوفيات التي كان مولعاً بها .

ولما كان عام ١٠٤٧ هـ توفي أحد أقربائه البعيدين وكان تاجراً مثريباً ، فانتقل إلى صاحبنا مبلغ ضخيم من المال ، فتيسرت له أسباب الوصول إلى ما يميل إليه بطبعه ، وانتظمت معيشته ، فقطع في وقت وجيز مرحلة طويلة في تحصيل العلوم .

أنفق جزءاً كبيراً مما ورثه في شراء الكتب ، وخصص جزءاً لمعيشته ، وأنفق الباقي في إصلاح منزله ، ثم شرع في تلقي علوم « المنقول والمقول » على الشيخ مصطفى الأعرج الذي اشتهر في عصره بنزارة علمه . وكان الشيخ يعني بمصطفى كثيراً لما يرى فيه من مخايل الذكاء والاجتهاد ، كما أن تلميذه وجده أعلم من جميع أساتذته الذين تلقى عنهم من قبل . وحضر في عام ١٠٤٩ هـ دروس الشيخ عبد الله الكردي الذي كان ممتازاً في العلوم العقلية والنقلية ، وكان يدرس في جامع أياصوفيا . وفي عام ١٠٥٠ حضر في جامع السلطانية على الشيخ « كچي محمد » المعروف بتضلعه في العلوم العربية . وقضى سنتي ١٠٥٢ و ١٠٥٣ هـ في تعلم أصول الحديث على الشيخ « ولي »

مؤلفاته

المسمى «جهاننا» وقد طبع في القسطنطينية في عام ١١٤٥ هـ. وترجم مع الشيخ محمد كتاباً في تاريخ أوربا؛ وترجم كتابه «فذلكة التواريخ» إلى التركية. وألف كتاباً في إدارة الدولة أسماء «دستور العمل»، وجمع كتاباً في فتاوى مشاهير المفتين أسماء «الرجم الرجيم بالسين والجميم». ثم ألف ذيلاً لفذلكة التواريخ في العهد التركي من عام ١٠٠٠ إلى ١٠٦٥ هـ. وألف كتاباً في تاريخ الحروب البحرية المثمانية وتراجم القبودانات أسماء «تحفة الكبار في أسفار البحار». وألف أخيراً رسالته المسماة «ميزان الحق في اختيار الأحق»، وهي آخر تأليفاته، نقد فيها علماء عصره ومشايخه نقداً خالصاً، مبيناً ما لهم وما عليهم في صراحة ووضوح، وذكر في آخرها ترجمة حياته التي استفدنا منها في كتابة هذه الكلمة.

صحة طاهر

مكتبة الجامعة

رجاء

الى أصحاب الاعلانات الفضائية

مجلة الثقافة تكرر الرجاء لحضرات أصحاب الاعلانات القضائية أن يوضحوا الاسماء والارقام وأمكنة البيوع خشية الوقوع في خطأ يضر باعلاناتهم.

ألف حاجي خليفة كتباً ضاع بعضها ولا يزال بعضها متداولاً بين الناس؛ منها كتابه المسمى «فذلكة التواريخ» وهو مختصر في التاريخ يشتمل على نحو مائة وخمسين أسرة، استخرجه من كتاب «بحر علم» للأمير جنابى التوفى عام ٩٩٩ هـ وذيله إلى سنة ١٠٥١ هـ وهو مفقود، وألف في سنة ١٠٥٢ هـ حاشية على تفسير البيضاوى ضاعت أيضاً، وكتب شرحاً لكتاب «المحمدية» في الفلك لعلى القوشى وضاع أيضاً. ثم ألف كتابه «تقويم التواريخ»، وهو جداول تاريخية من بدء الخليفة إلى عام ١٠٥٨ هـ ألفه بالتركية والفارسية في عام ١٠٥٨ هـ وطبع بالقسطنطينية عام ١١٤٦ هـ مع زيادة الجداول إلى عام ١١٤٥ هـ. ثم ألف بالعربية كتابه المسمى «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» وهو في تراجم العظماء. وجمع كتاباً في الأدب أسماء «تحفة الأختيار في الحكم والأمثال والأشعار». ثم كتابه العظيم المسمى «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون»، وقد اشتمل في جمعه عشرين عاماً، أتم الجزء الأول منه في عام ١٠٦٤ هـ طبعه فلوجل مع ترجمته اللاتينية وفهارس، مفصلة في سبعة مجلدات في سنوات ١٨٣٥ - ١٨٥٨ م، وطبع بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٧٤ هـ ثم طبع أخيراً باستانبول في سنة ١٣١٠ - ١٣١١ هـ. ثم ألف كتاب «لوامع النور في ظلمة أطلس مينور»، وهو ترجمة أطلس مينور الشهير. ترجمه بمساعدة صديقه الشيخ محمد الإخلاصى، وهو راهب فرنسى جاء إلى القسطنطينية فأسلم، وصادقه الحاج خليفة واستعان به كثيراً في العلوم الحديثة، وبالأخص في الترجمة من اللاتينية التي كان يجيدها الشيخ محمد الإخلاصى. ثم كتابه الكبير في الجغرافية العامة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - شارع الكرداسى رقم ٩ بابدين . مصر